الاستبداد الرمزي
الدين والدولة في التأويل السيميائي

عـن دار مومنت كتب رقمية، صـدر للباحث العراقي الدكتور شاكر شاهين كتاب بعنوان: "الاستبداد الرمزي: الدين والدولة فـي التأويل السـيميائي" (الطبعة الأولى، ٢٠١٣). والدولـة التي يتناولها الكتـاب، وهذا ما أغفله العنوان، هو العراق الراهن، مع تناول وضع سلطة البعث قبل العام ٢٠٠٣.

منذ مستهلّه يحدد الكاتب موضوع الكتاب: "القضية التـي يطرحهـا الكتـاب الحالي هـي في كيفية اسـتعمال الحاكم للاسـتبداد الرمزي الذي ينشط بفاعلية غير مرئية لتقييد معارضيه وأسـر شـعبه. الحاكم يسـتبد على شعبه من حيث لا يشـعرون. ثم في مرحلة لاحقة كيف يتحول هـذا الاسـتبداد الرمزي مـن الحاكم إلـى المجتمع ومن شـكله السياسـي إلى الديني – بعد حلول النظام الجديد في العراق تحديداً" (ص٨).

إن موضـوع شـرح العلامـة، ودلالاتهـا، جـزء مهـم ومثيـر مـن الخطـاب النقـدي المعاصر، ومن دراسـات حقليـة ومعرفيـة متنوعـة وعديـدة، تشـتغل علـى قـراءة الظاهري لاسـتكناه الباطني. ويلتمـس كثير من الباحثين اليوم قراءة الواقع عبر ما ينشره ويوزعه من علامات، فهي تكشـف ليس فقط عن الغايات المباشـرة، بل قد تكشف عن اللاوعـي السياسـي والاجتماعي والثقافـي عموماً، والأهم ربما أنها تكشـف عن ممارسة واعية تكرس فيها السـلطة نفسـها وتديمها شـرعياً. صحيـح أن العلامات ليسـت ثقافية حصراً، فالكون هو نفسه علامة كما يمكن أن يقـال. ولكـن علامات ثقافة معينة تظهـر، عبر قراءتها وتأويلهـا، طبيعـة هـذه الثقافة، وطـرق التفكير السـائدة فيهـا، والقيم الثانوية والمركزية، والمكونات والشـرائح الاجتماعيـة التي تعمل علـى نقلها بوعـي أم بغير وعي. في كل مجتمع علامـات، ولكن "تخضع العلامة لطبيعة التفكير السائد في المجتمع" (ص٧).

وعلـى أسـاس هـذه المقدمة التـي يضعهـا الباحث، فإنـه يقيم تمييزاً حـاداً بين العقل الغربـي والعقل العربي فـي قراءتهمـا لعلامـات الطبيعـة مثـلاً. فالعقـل العربي يـؤول علامات الطبيعة، الكسـوف مثـلاً، بأنها تعبير عن "الغضب الإلهي"، أما العقل الغربي فيراها ظاهرة طبيعية لها أسـبابها الطبيعية. ومن هذا التمييـز بين العقلين، فإن "العربي ينتج معنى تأويلي [كذا] بينما الغربي ينتج معنى تحليلي [كذا]" (ص٧–٨). فكان ذلك مناسـبة كما يرى الباحـث أن يسـتغل "الطغـاة مثل هـذا المنطـق التأويلي لتبرير طغيانهم" (ص٨).

وكمـا يدل عنـوان الكتاب، فـإن العلامـات والرموز موضـوع الـدرس والتأويـل هـي تلـك التي تسـتخدمها السـلطة لإضفاء الشـرعية على نفسـها وجوداً وديمومة.

والسلطة هنا رديفة الاستبداد. يميز الباحث بين الاستبداد التقليدي والاستبداد الرمزي. فالأول "يطرح معنى انفراد شخص ما بالسلطة وطغيانه على من هم دونه في امتلاك القوة وانتهاكه للقوانين. فهو استبداد واقعي مرئي يعيه الفرد والمجتمع بوضوح". أما الثاني، الرمزي، "كما نود أن نطرحه هنا يستثمر العلامات بكافة أشكالها والتي لا تقتصر على الصور واللافتات بل تتعداها إلى النظم والأنساق الاجتماعية والشخصيات والأحداث وكل ما من شأنه أن يؤول لغرض إنتاج المعنى في المجتمع. كما لا تنحصر في الإنسان الفرد – كالحاكم أو المسؤول الإداري – بل تتعداه إلى استبداد جماعة على أخرى، واستبداد المجتمع على الفرد والجماعة" (ص٨).

والمادة التي يشتغل عليها الباحث "جاءت من خلال ملاحظة مباشرة ومقصودة للعلامات المنتشرة في بغداد وسائر المدن العراقية متأثرة بموجة الحماسة الدينية بعد سقوط نظام البعث، وعززتها بما اختزنته ذاكرتي من العلامات السياسية في ذلك العهد" (ص٩). لذلك اعتمد الباحث على حكايات وقصص وعلى مشاهداته ومطالعاته للواقع اليومي ولما تبثه وسائل الإعلام. ولكن الباحث يمنح نفسه الحرية في أن يخرج من الفترة الزمنية التي حددها: "وفي مراحل متقدمة من الكتابة وجدت أن الموضوع يستحق أن أضيف إليه فصولاً عن تأويل بعض أفكار ابن خلدون وفصول [كذا] أخرى تتحدث [عن] التاريخ والمجتمع العربي لتأييد ما وصلنا إليه حول الأثر السيميائي على الفرد والمجتمع" (ص٩). والغرض من ذلك، رغم أني لا أجد الفصل ضرورياً في بنية الكتاب، هو تأصيل الاستبداد المعاصر، سلطة صدام حسين مثلاً، تاريخياً.

الكتاب قراءة في علامات ورموز ما بعد ٢٠٠٣، من جهة إشاعتها وتكرسيها للسلطة، بأنواعها المختلفة كافة، وتمثلاتها. وأبرز السلطات اليوم هي السلطة المقدسة. ويميز الباحث أشكالاً للهيمنة المقدسة: ١. السلطة وتتمثل بالعشيرة وتستند إلى الانتماء. ٢. السلطة وتتمثل بالدين وأبطاله (النبي الإمام الصحابي العالم) وتستند إلى الولاء. ٣. السلطة وتتمثل غالباً برئيس الدولة والزعيم السياسي وتستند إلى الولاء والانتماء (ص٢٠).

ومن بين الرمزيات التي تحظى بحضور كبير في الكتاب هي الرمزية الشيعية. وفي صدارة ذلك الإمام. والباحث يقيم تمييزاً بين الإمام والخليفة. إن "السلطة الرمزية للإمام ترتقي على السلطة الواقعية للخليفة لارتباط الأولى بالزمان والثانية بالزمن. وغالباً ما يطلق على مهمة الحاكم بأنها سلطة زمنية بينما يحكم الإمام وسط الزمان لأن جذوره مقدسة تتصل بالنبي الذي قرأ اسمه في لوح العرش قبل أن تُخلق الخليقة".

وفي الحقيقة لم يقدم لنا الباحث مسوغاً لغوياً ولا مفاهيمياً لتمييزه بين الزمان والزمن. إن إشارتي إلى هذه الحالة تندرج تحت ملاحظة مفادها أن الكتاب يفتقر نوعاً ما إلى الضبط المفاهيمي. وهناك مثال آخر: يرى الباحث أن انقياد الناس للسلطة الدينية مرده "تغليب العاطفة على العقل، والعقلية mentality على العقلانية rationality" (ص٤٠). إن المقابلة بين العقلية والعقلانية

لا تسوغ من خلال المقابلة بين اللفظين الأجنبيين، إذ لابد أن تجد تسويغها في اللغة التي يكتب بها، ويفكر فيها، الباحث، كما أنه لا وجود لمقابلة معيارية بين mentality و rationality. مثال آخر، يشير الباحث إلى أن "التشيع في العراق مؤسسة ثقافية...مقابل التسنن كمؤسسة اجتماعية" (ص٤١)، وأظن أن الثقافي لا وجود له إلاّ في إطار تشكيلة أو مؤسسة اجتماعية. فواقع الحال يفيد أن الإنسان الاجتماعي، والجماعات الاجتماعية هم تموقعات للثقافي.

يمكن القول إن الكتاب هو جولة "حرة" وقائعياً وسردياً، تعتمد القصص اليومية والحكايات، والنوادر، وهذه طريقة في الكتابة لا تذكّر إلاّ بعلي الوردي. ليس هذا حسب، فالكاتب يحاكي علي الوردي أسلوبياً حتى في بعض التعبيرات التهكمية والساخرة. وكما الوردي يسعى الباحث إلى اقتناص العبرة (وإن جرى البحث سيميائياً) من الحدث البسيط، والحكاية الدالة.

وأخيراً، لابدّ من التنويه إلى أن الثقافة العراقية تفتقر عموماً إلى البحث الأنثروبولوجي العلمي الجاد، ونأمل أن تكون بحوث الدكتور شاكر شاهين وزملائه استئنافاً للبحث في هذا الحقل العلمي الذي توارى كلياً خلال سنوات طويلة.

قراءة: علي حاكم صالح

غير المألوف في اليومي والمألوف
تأليف ياسين النصيّر

صدر عن دار نينوى للدراسات والنشر بدمشق كتاب جديد للناقد ياسين النصير بعنوان "غير المألوف في اليومي والمألوف: بحث في سوسيولوجيا الشعرية" ٢٠١٣، (٥٧٦ صفحة). ويمكن الإشارة ابتداء إلى أن مفهوم "غير اليومي" هو الانزياح عن لغة الحياة اليومية، بمعنى أن الشعرية هي "غير اليومي وغير المألوف"، أي الشكل الفني الذي تستخلص مادته وفنيته من الممارسة الحياتية اليومية ومن اللغة التي تتشكل ضمن هذه الممارسة، ولذلك اختصّ البحث بسوسيولوجية الشعرية، أي البنى الاجتماعية والثقافية التي تؤسس للغة الشعرية الجديدة من داخل بنية وأشكال لغة الحياة اليومية. والمسعى النقدي الجديد لا ينفصل عن اشتغال الناقد ياسين النصير على ثيمات وأفكار جديدة مهّد بعضها للنقد الأدبي أن يجد له مديات جديدة: كالمكان في النص الأدبي والفكري والفلسفي، ودور الاستهلال، والكشف عن الحداثة المقيدة، ونحو منهج لقراءة الحكاية الشعبية، وغيرها من البحوث الجديدة.